

ثقافة التسامح ونبذ العنف: مقصد شرعي وضرورة حضارية (العلامة ابن عاشور نموذجاً)

A culture of tolerance and non-violence: a legitimate purpose

د. محمد القايدي

الجامعة الزيتونية (تونس)

gaidi.beja@gmail.com

تاريخ القبول: 2023/06/17

تاريخ الارسال: 2023/04/21

ملخص:

من أجل ذلك نتناول مبدأ التسامح كمقصد شرعي عند العلامة ابن عاشور وأهميته في العصر الحديث ضمن سؤال مركزي: ما هي أهمية المقاربة الدينية في نشر قيم التسامح في الفكر الإصلاحي الحديث (ابن عاشور كنموذج) واستيعابه لثقافة التسامح ونشرها. وقد اعتمد الباحث في دراسته لتحقيق هذه الأهداف على المنهج التاريخي والتحليلي من خلال سبر غور المصنفات والمؤلفات ذات الصلة بموضوع الدراسة. وفي الخاتمة توصلت الدراسة لمجموعة من النتائج من أبرزها: أهمية مقاربة ابن عاشور في ربطه بين مبدأ التسامح ومقاصد الشريعة وثراء المقاربة الدينية في الدعوة إلى التسامح والسلم العالمي

لم تشهد البشرية طيلة مسيرتها التاريخية نمواً لنظم العنف والتطرف كما نشهده في العقود الأخيرة من الزمن الحديث. ومثل التراكم الزهيب للسلطة والاحتناز المستمر لأدوات القهر والضغط كابوساً مُرعباً للإنسانية وتهديداً حقيقياً بالدمار الشامل للمنجز الحضاري الإنساني. وفي غياب توازن حقيقي بين النظم الدولية ومنظومة القيم الإنسانية، تمددت مناخات العنصرية والتعصب والإرهاب مما جعل من مهمة نشر ثقافة التسامح والحوار والتعايش الإنساني ضرورة حضارية من أجل توفير الاستقرار الاجتماعي والسلم العالمي.

كلمات مفتاحية:

التسامح – العنف – ابن عاشور- التطرف – المقاصد.

Abstract:

Throughout its history, mankind has not witnessed the growth of systems of violence and extremism as we are witnessing in the last decades of modern times. The terrible accumulation of power and the continuous hoarding of tools of oppression and control represented a terrifying nightmare for humanity and a real threat to the total destruction of the human civilizational achievement. The nature of international relations in what I call the “new international order” has become authoritarian, arbitrary, coercive par excellence, formed historically.

in the absence of a real balance between international balances and the system of human values, creating climates of racism, violence, intolerance and terrorism, which made the task of spreading a culture of tolerance, dialogue and human coexistence a civilized necessity from In order to provide social stability and international peace).

Keywords:

Tolerance - Violence – Ibn Ashour – Extremism - Maquased

مقدمة:

يعتبر التسامح من أسمى القيم الإنسانية؛ فهو قيمة أخلاقية هامة جدا نقيضة للتعصب والعنف والإرهاب، وقيمة دينية متأصلة في عمق مرجعيتنا الدينية وحاجة ملحة لمجتمعاتنا المعاصرة حيث انتشرت آفات اجتماعية خطيرة كالعنف والتطرف والارهاب باتت تهدد منجزنا الحضاري، وقيمة سياسية تقبل بالاختلاف، وقيمة حقوقية تدعو لعدم التمييز وتحدد الحقوق والواجبات في إطار المواطنة، وقيمة اجتماعية تعني التعايش مع الآخرين بسلام، وتقبل أفكارهم وآرائهم وممارساتهم؛ حتى لو كانت عكس ما تؤمن به.

وتمثل المقاربة التي قدمها العلامة محمد الطاهر ابن عاشور من المقاربات الحديثة والجديدة التي انطلقت من مرجعية مقاصدية شرعية فأصلت هذه القيم بروح جديدة ولذلك تسعى هذه الورقة للوقوف عندها من خلال سؤال مركزي يبحث في أهمية المقاربة الدينية في نشر قيم التسامح وتحديدًا من خلال الفكر الإصلاحي الحديث (ابن عاشور كنموذج) ومدى استيعابه لثقافة التسامح ونشرها وتكمن أهمية هذه الورقة في إبراز تجليات تفعيل المقاصد الشرعية في المسألة الاجتماعية والسياسية عندما استدعى ابن عاشور المقاصد الشرعية لتأصيل قيمة التسامح في محاولة لتجديدها في الاجتماع الإنساني وقد اعتمد الباحث المنهج التاريخي والمنهج التحليلي في هذه الدراسة، التي انتهت إلى إبراز قوة المقاربة الدينية في تثبيت هذه القيم في مجتمعاتنا المعاصرة التي أصبحت في حاجة ماسة لها بعد أن اجتاحتها آفة العنف والتطرف والإرهاب.

1. مبحث تمهيدي مفاهيمي

1.1 تعريف التسامح:

التسامح لغة هي من جذر كلمة (سمح) بمعنى جاد وأعطى عن سخاء، ويقال سامح وتسامح إذا تساهل¹ أي لاين في المعاملة، ورجل سمح أي سهل. ومادة سمح تدل على السلاسة والسهولة²

أمّا اصطلاحاً، فإذا كان أئمة اللغة قد اتفقوا في تحديد المعنى الوضعي والجذر اللغوي لكلمة التسامح، فإن ذلك لم يمنع وجود الخلاف في ضبط مفهومه السياقي، إذ تعددت التعريفات واختلفت في تحديد المفهوم الاصطلاحي له، بسبب الاختلاف في المرجعيات، والتنوع في طبيعة النظر. فعرفه البعض بأنّه «المساكنة والتعايش في إطار رؤية إسلامية تحترم حق الآخر في الرأي والعقيدة والفكر»³

. وعرفته منظمة اليونسكو سنة 1995 بأنّه «الاحترام والقبول والتقدير للتنوع

الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية»⁴

ولذلك فإن المعاصرين يعرفون "التسامح" كآلآتي: «الاحترام المتبادل والقبول للآخر، والتقدير للتنوع الثقافي، ولأشكال التعبير، والصفات الإنسانية المختلفة وفق ضوابط لا يتم فيها انتهاك حقوق الآخرين ولا التفريط في القيام بالواجبات»⁵

1.2 ترجمة لمحمد الطاهر ابن عاشور: (1879 – 1973):

يَنحدر من أصول أندلسية، نشأ في بيئة علمية لجده للأب قاضي قضاة الحاضرة والوزير محمد العزيز بوعتور جدّه لأمه درس بجامع الزيتونة ثم أصبح من كبار المدرسين فيها، فتميز بثقافة موسوعية متينة ومتنوعة شملت التفسير والحديث والقراءات ومصطلح الحديث والبيان واللغة والتاريخ والمنطق وعلم العروض. كما

تميز بخصوبة المعارف دراسة وتدرّيساً، كتابة وتأليفاً، فقد برع في العديد من العلوم ودّرّسها بإتقان وألّف فيها بإضافات معلومة، إلى جانب قدرة على التبليغ ومعرفة بطرق التدريس⁶. ففى هذه البيئة التي ميزتها المجد والعز والجاه وأسرة توارثت العلوم والمعارف وتقلد مناصب الإفتاء والوزارة والقضاء والتدريس نشأ وترعرع، وبين أحضان الكتب ومجالس العلم في جامع الزيتونة، كبرت همته وسطع نجمه. يقول محمد الطاهر الميساوي: "ومن ثمّ فلا غرابة أن جاءت هذه السيرة وارفة الأفنان، متنوعة العطاء، دانية القطوف، وكأنما أنت في حضرة مجمع من العلماء ضُمّ في صعيد واحد: اللّغوي، والأديب، والمفسّر، والمحدّث، والأصولي، والفقيه، والمربّي، والمؤرّخ، والفيلسوف، والمنطقي، بل وحقّى العالم بأمور الطب⁷.

لقد كان محمد الطاهر ابن عاشور صاحب مشروع إصلاحي متكامل بثه بين ثنايا مؤلفاته إلّا أنّ الإرادة السّياسية في الحقبة الاستعمارية وما بعدها في دولة الاستقلال قوضت هذا الجهد الذي امتد على أكثر من نصف قرن من تدريس وإدارة وإفتاء وتأليف⁸ وبين بحث وتأصيل وتجديد يعتبر من أبرز المجددين في علم مقاصد الشريعة الإسلامية في العصر الحديث، والمؤسس الثاني لهذا العلم بعد الشاطبي.

2. التسامح مقصد شرعي عند ابن عاشور:

تناول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قيمة "التسامح" في كتابين يعدان من أهم مؤلفاته التجديدية والإصلاحية وهما كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية وكتاب أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

ففي كتاب المقاصد وفي معرض بحثه عن صفات الشريعة الإسلامية تحدث ابن عاشور عن السماحة بوصفها أولى صفات الشريعة الإسلامية ومقاصدها ولم يستعمل كلمة تسامح في هذا المقام لكونه قاصداً للبحث عن الصفات والمقاصد. ولكون "التسامح فعل متولد من صفة "السماحة"، حيث كلما نشطت صفة

السماحة نشطت معها وتولد فعل التسامح وقويت فرصة التنبيه لهذا الفعل⁹. ولذلك لما فصل الحديث عن الاجتماع الإنساني في كتابه أصول النظام الاجتماعي راح بين المصطلحين ففي أول الكتاب تحدث عن السماحة وعدّها من المبادئ المركزية التي يتأسس عليها الاجتماع الإنساني، فهي إلى جانب الاعتدال والتوسط من "الأصول العامة للشريعة الإسلامية التي تجب مراعاتها في تأسيس الجامعة الإسلامية"¹⁰ أمّا في آخر الكتاب فقد بسط الحديث عن التسامح بوصفه "من خصائص دين الإسلام وأشهر مميزاته ونعمه"¹¹ وهذه المراوحة بين السماحة والتسامح في كتابات ابن عاشور ليس من قبيل التكرار بل هو تفصيل واع وتقسيم مقصود، فالسماحة بوصفها صفة تحيلنا إلى الجانب النظري في حين أنّ التسامح يحيلنا إلى الجانب العملي .

وفي الدلالة اللغوية اعتبر ابن عاشور كلمة (تسامح) مصدر من فعل سامح "وأصل السماحة السهولة في المخالطة والمعاشرة، وهي لين في الطبع في مظان تكثري أمثالها الشدة"¹² . ورغم تأصل هذا اللفظ في جذور اللغة العربية فهو لم يكتسب صفة المفهوم الفكري الدال على قيم عملية وسلوكية مخصوصة إلا في العصر الحديث. وهذا ما يقرّ به ابن عاشور في قوله: "وأنا أريد بالتسامح إبداء السماحة للمخالفين للمسلمين بالدين وهو لفظ اصطلاح عليه العلماء الباحثون عن الأديان من المتأخرين من أواخر القرن الماضي (القرن التاسع عشر) أخذوا من الحديث "بُعِثت بالحنفية السمحة"، قد صار هذا اللفظ حقيقة عرفية في هذا المعنى"¹³.

والتسامح، بهذا المعنى، هو علاقة ذات طبيعة مناقضة لما ساد تاريخيا من علاقات بين أصحاب الأديان والعقائد والمختلفة، إذ "كان أهل الأديان منذ عُرف التاريخ يجعلون الدين جامعة ومانعة، أي: كما يجعلونه جامعا للمتديّنين به في المودة وحسن المعاشرة والعصبية، كذلك يجعلونه مانعا من الامتزاج والمعاشرة والمودة مع

المتدينين بغير دينهم، ثم تشب بينهم بحكم التولد والتدرج صدف الكراهية ثم البطش بأولئك المخالفين، وشواهد التاريخ على ذلك كثيرة¹⁴. "ويشخص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور موقف التعصب باعتباره حالة نفسية تتملك صاحب العقيد تجاه من يخالفه فيها، فالمتشيع لعقيدة ما "ربما أحسن من ضلال مخالفه بإحساس يضيّق به صدره وتمتلئ منه نفسه تعجبا من قلة اهتداء المخالفين إلى العقيدة الحقّة وكيف يغيب علمهم ما يبدو له هو واضحا بيّنا".¹⁵

من هنا يطرح الشيخ ابن عاشور سلوك التسامح المضادّ للتعصب باعتباره ثمرة عمل تربوي أخلاقي مقاوم لتلك الحالة النفسية التي تستبدّ بالمتدين والمؤمن بعقيدة ما بصورة عامة، "فيكون من النشأة على مكارم الأخلاق معدل لذلك الحرج وشارح لذلك الصدر الضيق، حتى يتدرب على تلقي مخالفات المخالفين بنفس مطمئنة وصدر رجب ولسان طلق لإقامة الحجة والهدى إلى المحجة دون ضجرو ولا سامة".¹⁶

إنّ الشيخ الطاهر يجعل من موقف التسامح موقفا أخلاقيا رفيعا (من مكارم الأخلاق) يقوم على قبول واقع الاختلاف، وعلى ضرورة التعايش السلمي بين المختلفين دينيا وفكريا وجعل المحاجة الفكرية سبيلا أوحدا للتعامل فيما بينهم. والقبول بالاختلاف الذي يؤسس له هذا الموقف التسامحي الأخلاقي يتضمّن، بالتبعية، القبول بمبدأ التعددية الدينية والفكرية وحرية الاختيار.

فالتسامح بهذا الاعتبار يصبح تعبيرا عن العلاقة الإيجابية بين المتخالفين دينيا وفكريا، ومع ابن عاشور اتخذت عملية التأسيس لمفهوم التسامح في الفكر الإصلاحي الإسلامي الحديث. منعى تأصيليا وأصوليا يهدف إلى إبراز أن هذه الخصلة -التي تتسم بها مجتمعات غربية مسيحية إنما هي أصل من أصول الإسلام الذي أسس للتسامح أسسا راسخة وعقد له موثيق متينة".¹⁷

وبهذا يعود ابن عاشور إلى متن النصي التأسيسي في الإسلام، ويستعرض من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يجعله يستفيد بأن "القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبات يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جيلة البشر وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة، وهذا المبدأ إذا تخلق به المرء أصبح ينظر إلى الاختلاف نظرة إلى تفكير جبلي تتفاوت فيه المدارك إصابة وخطئا، لا نظره إلى الأمر العدواني المثير للغضب. 18" ولما كان التسامح أصلا مؤصلا في نصوص الإسلام التأسيسية، بالنسبة إلى المصلح، فإن ترجمته العملية تجسدت في سلوكيات أوائل المسلمين تجاه غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وتحديدًا لما "مازح المسلمون أمما مختلفة الأديان دخلوا تحت سلطانهم من نصارى العرب ومجوس الفرس.

اعتبر ابن عاشور أن ثقافة التسامح نابعة من جوهر الثقافة الإسلامية: إذ إن «قاعدة هذه الأسس هي القاعدة الفكرية النفسية، وتلك هي أن القرآن وكلام الرسول... يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جيلة البشر، وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة، وهذا المبدأ إذا تخلق بالمرء أصبح ينظر إلى الاختلاف نظرة إلى تفكير جبلي... لا نظرة إلى الأمر العدواني المثير للغضب». 19

فالشـيخ ابن عاشور ارتقي بمبدأ التسامح إلى مصاف المقصد الشرعي وهو ما يجعل جميع احكام الشريعة الإسلامية تدور حول هذا المقصد ولا تعارضه.

3. التسامح ضرورة حضارية للتعايش السلمي عند ابن عاشور:

تنطلق العلاقات الإنسانية في الاجتماع الإنساني عند ابن عاشور، من رؤية فلسفية تقوم على أساس احترام التعددية الدينية والفكرية، والاعتراف بالآخر، في

ظل مجتمع تسوده الحرية والتعايش المشترك وهو ما يجعل هذه الأطروحة تقوم على مجموعة من الأسس هي:

3.1 الاختلاف سنة كونية وواقع إنساني:

يعتبر القرآن الاختلاف حقيقة إنسانية وحاجة طبيعية لا يمكن قمعها. وعلى هذا الأساس خلق الله البشري ألسن وثقافات وجنسيات مختلفة، وضمن هذا الإطار يفهم ابن عاشور الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات 13. وهي آية بقدر ما تؤكد هذا التنوع البشري فإنها تقرر المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا 20 فالقرآن الكريم يحدثنا عن الاختلاف والتنوع في أكثر من خطاب، ووفق أشد الصيغ واقعية ووضوحاً: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: 50)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: 21)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: 251)، وبهذا يصبح التنوع والتعدد والاختلاف سنة من سنن الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هود: 118-119.

3.2 التعددية الفكرية والدينية:

بعد أن أكد ابن عاشور أن الاختلاف والتنوع حقيقة قرآنية، حيث دلت الآيات على انقسام البشر إلى مجموعات بشرية تشكلت في أمم وقبائل وشعوب، من هنا

فليس غريباً اختلاف البشر، إذ إن اختلافهم فطرة إلهية وسنة ربانية في الخلق. قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ سورة الأحزاب، الآية 62. وإذا كانت مسألة التنوع سنة إلهية وفق النص القرآني «فإن من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء وجعلهم نسخاً مكررة ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر عليها الناس، وغير نافع لو أمكن؛ لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة بل من خالف الفطرة عاقبته عقاباً معجلاً»²¹

ولأن الله لم ولا يجبر أحداً على سلوك سبيل معين في الحياة، قال تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ سورة الكافرون الآية 6. قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ سورة البقرة الآية 255 فهو لا يقبل منا أيضاً أن نجبر من نختلف معه ويختلف معنا على سلوك السبيل الذي آمنا بأنه السبيل القويم، وتبعاً لذلك لا يجوز لنا أن نقصي الآخرين ونسلمهم حق ممارسة إرادتهم واختيارهم في الحياة، يقول تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ﴿ سورة الأنعام، الآية 135. إن هذه الآية تقرر التعددية ولا تنفيها، إذ إن الله تعالى لا ينفي وجود سبل مختلفة ومتعددة في الحياة، وإذا كانت سبل متعددة فلا بد أن يتبع كل سبيل أناس، إنما الله يوصي الإنسان أن يختار صراط ربه المستقيم، وألا يتعد عن السبيل القويم.²²

في هذا التأصيل لمبدأ التعددية، يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره. فالتعددية في الإسلام تعني في جوهرها، التسليم بالاختلاف، التسليم به أفقاً لا يسع عاقلاً إنكاره، والتسليم به حقاً للمختلفين لا يملك أحد أو سلطة حرمانهم منه، وهي معنية بالموضوع الذي يكون الاختلاف حوله، أو الذي ينحصر فيه نطاقها، فتكون دينية، ومذهبية، ولغوية، وثقافية، وعرقية، وسياسية.

يؤسس القرآن الكريم للتعددية الدينية، إذ يقر بتعدد الاتجاهات الفكرية والعقائدية في المجتمع والحياة، لكن مع التأكيد على وحدة الحقيقة ووحدة الصراط المستقيم. فالإنسان في الرؤية القرآنية مطالب بالكدح والمكابدة، واستباق الخيرات لسلك الطريق المستقيم في حرية كاملة واختيار حر قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ سورة البقرة الآية 255. وبهذا فالقرآن من منطلق مبدأ الاختلاف والتنوع لا يلغي الديانات الأخرى ولا يحظر وجودها، بل يعترف بها تاركاً لها حرية الاختيار، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ سورة الكهف، الآية 29. ولكن لا يصححها ولا يصوبها.

3.3 الحرية أساس التعايش المشترك:

يعتبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أحد الرموز الفكرية التي انفردت بالإلحاح الفكري على دور الحرية في تنمية الإنسان وتحقيق رسالته الاستخلافية، بل اعتبرها مقصداً من مقاصد الشريعة الفطرية.

فالفطرة حسب ابن عاشور أصل كلي تنبني عليه جملة من المقاصد الشرعية سواء كانت خاصة أو عامة. والحرية والمساواة من أبرز المقاصد العامة التي تنبني على وصف الفطرة. والحرية هي وصف فطري في البشر، قال تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ سورة الروم الآية 30 ومادامت الحرية من أصل الفطرة فهي شعبة من شعب الإيمان. وينطلق ابن عاشور من قوله ل تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ سورة الأعراف الآية 157، ينطلق من هذه الآية للحديث عن الحرية كأصل من أصول الإسلام، فالأسر والأغلال هي التكاليف الشاقة والقيود التي كانت تلغي حريتهم مما يفرضه السدنة والقادة على عموم الناس.

فلقد كان الإنسان حُرّاً على الفطرة إلى أن أتى عليه حين من الدهر والتاريخ فتراكمت وسائل الضغط قسوة وتسلطا، فبدأ القوي يسخر الضعيف، والبسيط يذهب ضحية المحتال، دعم هذا الأمر إيديولوجيا مضللة من أساطير الوثنية والشرك والكهانة. فجاءت دعوة الإسلام قال تعالى: ﴿رحمة للعالمين﴾ (سورة الأنبياء: 107) معلنة الحرب على جميع القيود ورموز العبودية، داعية إلى تواصل اجتماعي ومدني يقوم على التعاون في إطار شرائع وقوانين من خلال تنظيمات اجتماعية وسياسية واضحة الأهداف والوظائف. فالإسلام، بنظر ابن عاشور، بذل للأمة من الحرية أوسع ما يمكن بذله في شريعة جامعة بين أنواع المصالح، بحيث بلغ بها حدا لا يمكن تجاوزه وإلا انهدم البناء الاجتماعي برمته.

لقد مثلت الفطرة إذن موقفا نظريا أساسيا انطلق منه ابن عاشور لصياغة نظريته في مقاصد الشريعة، اعتمادا على قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ (سورة الروم الآية 30). والفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق؛ ففطرة الإنسان هي "ما فطر، أي خلق عليه الإنسان ظاهرا وباطنا أي جسدا وعقلا"23.

أما التسامح فهو ثمرة للتعايش ونتيجة عنه، فلا يمكن أن يكون التسامح إلا بعد عيش مشترك لجماعة من الناس، تحمل أفكاراً وتصورات متباينة، وتمارس عادات متنوعة، وتنتمي لديانات مختلفة. وهو قيمة راقية لا تصدر إلا عن نفوس كريمة، فكم من المجتمعات بحاجة ماسة لها للتخلص من كثير من المشاكل التي تكاد تعصف بها، بينما هي في القدس حاضرة ومتجذرة بين المسلمين والمسيحيين.

سيكون للتسامح الديني أثراً على الفرد والمجتمع، أما ما هو أبعد من ذلك، فهو البناء الحضاري، الذي يعني انطلاق نمط من أنماط السلوك الإنساني، يعترف

بالآخر، فيؤثر فيه، ويتأثر به، وهو ما يعني حضارة قوية وممتدة، لن تعصف بها التقلبات الاقتصادية والسياسية.

إذن هي معادلة راقية، فالتعايش السلمي، يدعو الناس إلى التسامح والتآخي، فإذا حققوا ذلك، استطاعت مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وكذلك دول العالم أجمع، رسم ملامح الحضارة الإنسانية، المبنية على الحقوق والواجبات، وهذا ما أراده القرآن الكريم، عندما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة:30.

4 من تأصيل ابن عاشور إلى التأسيس المجتمعي:

4.1 التعددية والتأسيس للمشاركة السياسية والمجتمع الديمقراطي

إن رواد الفكر الإسلامي الحديث قد شرّعوا، من خلال تأسيسهم لمفهوم التسامح، ولفكرة التعدّد والاختلاف إلى درجة اعتباره "ضروري في جبهة بني البشر"، كما مرّ بنا في قول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. فقد وقع الارتقاء بقبول مبدأ الاختلاف إلى درجة الموقف الأخلاقي، فهو من مكارم الأخلاق التي تجعل المؤمن "يتدرّب على تلقي مخالفات المخالفين بنفس مطمئنة وصدر رحب". إن مزية مفهوم التسامح الإصلاحي أنه قدّم قراءات في نصوص الإسلام وفي تجارب المسلمين التاريخية من زاوية إبراز فكرة التعدّد لا فكرة الوحدة وتثمين مبدأ الاختلاف لا مبدأ الإجماع والانتصار لسلوكيات التعايش والتحاور بين المتخالفين لا لسلوكيات الصراع والنفي المتبادل بينهم. ليس عسيرا أن نوجد علاقة وثيقة بين منزع القبول بالتعددية في الفكر الديني والشروط المناسبة للممارسة الديمقراطية سياسيا. فلا شك في أن فكرة التعددية الدينية تشكّل رافدا من روافد التأسيس الديمقراطي من أجل تثبيت مفهوم المشاركة السياسية الشفافة وبناء المجتمع الديمقراطي.

فلا يمكن أن ننكر القيمة الهامة التي يمكن أن يمثلها اليوم التأويل الذي قام به الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور لنصوص من القرآن والسنة والذي أفضى به إلى استنتاج مؤداه "أن الاختلاف ضروري في جبهة البشر وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة. فهذا المخزون الإصلاحي لا يمكن أن يقود إلى التسامح باعتباره موقفا أخلاقيا فحسب، بل كذلك إلى التعددية باعتبارها مبدأ فكريا وثقافيا،

فيمكن أن تكون فكرة التعددية الدينية المضمّنة في مفهوم التسامح الإصلاحي رافدا من روافد التأسيس الديمقراطي لو قدّر لها أن تغلغل في الثقافة الجمعية لأوسع المسلمين وأن تحكم الخلفيات المرجعية للتيارات الدعوية والحركات السياسية. فنواة مفهوم التسامح الإصلاحي قابلة للتطور في اتجاه التأسيس لما هو أبعد من التعددية الدينية القائمة على فكرة ترتيب العلاقة، ترتيبا إيجابيا، بين أتباع الأديان المختلفة. إن هذه النواة قابلة للتطور في اتجاه التأسيس للتعددية المذهبية والإيديولوجية والسياسية بين الجماعات المختلفة داخل الإسلام نفسه.

4.2 الحرية والتأسيس لثقافة المواطنة

إنّ ثقافة التسامح المبنية على قيم الحرية والمساواة والاعتراف بالأخري يمكن أن يؤدي إلى حالةٍ سياسيّة-قانونيّة تفضي إلى الاعتراف الدّستوري والقانونيّ بجملةٍ من الحقوق المدنيّة والسياسيّة لكلّ أولئك المختلفين الذين ينتسبون إلى الكيان الوطني وهي حقوق يتمتّعون بها على قدر المساواة أمام القانون. ممّا يجعلنا نؤسس عبرها إلى ثقافة مواطنة جديدة تتجاوز منطق الاقصاء والعنف وتقطع مع ثقافة الإرهاب والتطرف. 24

فالتلازم الماهويّ بين مبدأى الحرّية والمساواة، في ظلّ مجتمع متسامح لن يؤدي إلا إلى تأسيس معنى المواطنة الحقيقي الذي تتطلع إليه شعوبنا العربية والإسلامية منذ عهد الإصلاحية العربية الحديثة.

فالمواطنة كثقافة لا يمكن أن تُبنى وتتطور من خلال نصوص قانونيّة فقط، بل لا بد لها بيئة ثقافية تقوم على التسامح حتى لا يتحول التنافس بين المختلفين إلى صراع صفري مدمر. وبهذا المعنى يغدو التسامح كحصيلة للتوعية والتثقيف، «فالعنصر التثقيفي في جوهره تسميح، أي تدريب يومي للذات على اللين وقيم السماحة والمثل العليا، وتمييز ما يطلب في تحقيق لدفع سلوك منفتح متسامح معترف بالآخر اعترافه بالذات...، لذلك يبدو التسامح في هذا المقام ضروريا لدفع ما لدى البشر من استعداد للعداوة والتنافر والتعصب والكرهية». 25 ومن ثم تكون ثقافة التسامح عمليّة هادفة "تطمح إلى خلق أجواء لا تسمح بانقلاب الاختلاف إلى معارك دامية، وإنما تبقى وجهات النظر في احترام القانون وحرية التعبير والرأي". 26 وبعبارة أخرى: إن ثقافة التسامح تعني إكساب البشر وخاصة الناشئة مهارات الحياة التي تخولهم للعيش معا في مساواة واختلاف، ولذلك فهي تروم تمكين الناشئة من اكتساب المهارات الحيائيّة التي تخول لهم نبذ العنف ورفض التسلط والانفراد بالرأي ورفض الحقائق المطلقة 27

4.3 التعايش السلمي ومقاومة ظاهرة العنف والتطرف

مثلت ظاهرة الإرهاب والتطرف الديني في العقود الأخيرة أهم ظاهرة هزت العالم وأمسّت تهدد التوازنات الاجتماعية والسياسية الكبرى لمجتمعاتنا، كما أمسّت تمعن في استنزاف وتشويه واختطاف المرجعية الدينية الجامعة.

وفي إطار البحث عن أهم محددات المواجهة الفكرية والثقافية لظاهرة التطرف والعنف توصلت عديد الدراسات أنّ أبرز المداخل لمقاومة هذه الظاهرة هو المدخل الثقافي التربوي الذي يقوم على نشر ثقافة التسامح. وبهذا يصبح التسامح ضرورة حضارية لمقاومة هذه الظواهر الخطيرة التي تهدد مجتمعاتنا المعاصرة

الخاتمة:

مثلت مقارنة العلامة محمد الطاهر ابن عاشور من المقاربات المهمة في الفكر الإصلاحية الحديث التي نجحت في تأصيل فكرة التسامح والارتقاء بها إلى مستوى المقصد الشرعي التي تدور عليها أحكام الشريعة الإسلامية. وهذه الرؤية المقاصدية جعلت التسامح والتعايش بين الأديان مهمة إنسانية وخيار منهجي ومطلب واقعي وشرعي، بما يتضمنه من اعتراف بالآخر وبحقه في الوجود، إذ بدونه تنعدم شروط الحياة الآمنة وظروف السلم الأهلي والاجتماعي. وبقدر ما مثلت أطروحة الشيخ ابن عاشور نقلة نوعية في الفكر الإسلامي التقليدي فإنها فتحت أفقا رحبة لإعادة تأسيس وعي جديد قادر أن يتحول إلى أرضية مناسبة ومشتركة في إحدى أهم المسائل تعقيدا وصعوبة، إلهي مسألة التعايش بين الأديان والحضارات والقضاء على أبرز تهديد أصبح يهدد المنجز الإنساني والمتمثل في طاهرة العنف والتطرف والارهاب. ولذلك توصي هذه الورقة:

1. إعادة الاعتبار لمقاربة الشيخ ابن عاشور التي فتحت أفقا رحبة للفكر الإسلامي للتفاعل مع الفكر الإنساني الحديث وخاصة المقاربة الحقوقية.
2. العمل على تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية في المسألة الاجتماعية والحكم والسياسة حتى تكون مواكبة لتطورات الفكر الإنساني.

3. التركيز على المقاربة الدينية في محاربة الآفات الخطيرة التي تنخر مجتمعاتنا كالتطرف والإرهاب لما تزخر به من قوة في المخيال الديني والاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. بلقزيز عبد الإله، في مفهوم المواطنة،
<https://www.skynewsarabia.com/blog>
3. الثعالبي، عبد العزيز. روح التحرر في القرآن، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.
4. حسنى اسماعيل، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط6، 1995.
5. بن حميدة، المهدي، محمد طاهر بن عاشور (مقال على الانترنت
([https://mbasic.facebook.com /](https://mbasic.facebook.com/)
6. بن الخوجة، محمد الحبيب: شيخ الإسلام الامام الاكبر، محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس 2008
7. بالراشد محمد، التربية على المواطنة وبناء ثقافة التسامح،
<https://www.mominoun.com/pdf1/2017>
8. الزراعي محسن، الإنسانية وثقافة التسامح، ضمن عمل جماعي، التنوير والتسامح وتجديد الفكر العربي، قرطاج، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2007.
9. سليمان دريع علي، حقيقة التسامح في الإسلام، مكتبة ابن كثير، الكويت 2009.

10. ابن عاشور محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام تونس: دار سحنون والقاهرة: دار السلام، 2006
11. ابن عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 2005، ص55.
12. ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997.
13. عبد الباسط عبد الرحيم عباس، «مبدأ التسامح في إطار المواثيق الدولية والتشريعات العراقية النافذة»، مجلة العلوم القانونية والسياسية، كلية العلوم القانونية والسياسية، جامعة ديالى / <https://bit.ly/2Xis5GX>
14. عبد الوهاب، حسن حسني: كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
15. ابن فارس أو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة.
16. القرضاوي يوسف، الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، القاهرة، دار الصحة للنشر والتوزيع، ط، الثانية، 1411هـ/1991م.
17. قيم التسامح في المناهج المدرسية العربية، مركز رام الله للدراسات والحقوق، 2012.
18. ماجد الغرباوي، منابع التسامح: مقارنة تمهيدية، ضمن مجموعة من المفكرين، التسامح ليس منة أوهية، 2006.
19. ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت 1414هـ، مج2.

20. الميساوى، محمد الطاهر «المشروع الذى لم يكتمل» دراسة للمؤلف ضمن تحقيق كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، دار النفائس، عمان / الاردن، 2001

21. الميلاد زكى، ابن عاشور ومفهوم التسامح. فحص وتحليل، <https://www.alyaum.com/articles>

22. الناصري محمد، جدل الخصوصية والعالمية .. قراءة في التعددية الدينية من منظور قرآني جدل الخصوصية والعالمية / <https://kalema.net/home/article/view/1248>

الهوامش:

¹ - ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت 1414هـ، مج2، ص490.

² - بن فارس أو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة،

³ - سليمان دريع علي، حقيقة التسامح في الإسلام، مكتبة ابن كثير، الكويت 2009، ص11.

⁴ - نقلا عن: عبد الباسط عبد الرحيم عباس، «مبدأ التسامح في إطار المواثيق الدولية والتشريعات العراقية النافذة»، مجلة العلوم القانونية والسياسية، كلية العلوم القانونية والسياسية، جامعة ديالى / <https://bit.ly/2Xis5GX>

⁵ - قيم التسامح في المناهج المدرسية العربية، مركز رام الله للدراسات والحقوق، 2012، ص15

⁶ - بن حميدة، المهدي، محمد طاهر بن عاشور (مقال على الانترنت / <https://mbasic.facebook.com>)

- 7 - الميساوي، محمد الطاهر، "المشروع الذي لم يكتمل" دراسة للمؤلف ضمن تحقيق كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، دار النفائس، عمان / الاردن، 2001، ط 2، ص 17/16
- 8 - ابن الخوجة، محمد الحبيب، شيخ الإسلام الامام الاكبر، محمد الطاهر بن عاشور، الدار العربية للكتاب، تونس 2008، ص 20
- 9 - الميلاذ زكي، ابن عاشور ومفهوم التسامح. فحص وتحليل، <https://www.alyaum.com/articles>
- 10 - ابن عاشور محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام تونس: دار سحنون والقاهرة: دار السلام، 2006، ص 25.
- 11 - المرجع نفسه، ص 220.
- 12 - المرجع نفسه، ص 226.
- 13 - المرجع نفسه، ص 220.
- 14 - المرجع نفسه، ص 228.
- 15 - المرجع نفسه، ص 229.
- 16 - المرجع نفسه، ص 229.
- 17 - المرجع نفسه، ص 230.
- 18 - المرجع نفسه، ص 230.
- 19 - المرجع نفسه، ص 230.
- 20 - ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع -تونس – 1997.
- 21 - القرضاوي يوسف، الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، القاهرة، دار الصحة للنشر والتوزيع، ط، الثانية، 1411هـ/1991م، ص 64.

²² - الناصري محمد، جدل الخصوصية والعالمية: قراءة في التعددية الدينية من

منظور قرآني جدل الخصوصية والعالمية / <https://kalema.net/home/article/view/1248>

²³ - ابن عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار السلام للطباعة

والنشر، ط1، 2005، ص55.

²⁴ - بلقزيز عبد الإله، في مفهوم المواطنة، <https://www.skynewsarabia.com/blog>

²⁵ - محسن الزراعي، الإنسانية وثقافة التسامح، ضمن عمل جماعي، التنوير والتسامح

وتجديد الفكر العربي، قرطاج، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 2007،

ص 422

²⁶ - ماجد الغرباوي، منابع التسامح: مقارنة تمهيدية، ضمن مجموعة من المفكرين،

التسامح ليس منّة أو هبة، 2006، ص 154

²⁷ - بالراشد محمد، التربية على المواطنة وبناء ثقافة التسامح،

<https://www.mominoun.com/pdf1/2017>

